

ويخيل إليّ أن لو أتيح لكاتب أن يترجم بعض ما كانت تقوله هذه الأعين، لزعم أن شهرزاد كانت تقول للملك: أترى إلى هذا النعيم! لقد وعدتك به، وكنت أظن أنني سأكون أقدر منك على احتماله، وأني سأكون منك مكان الترجمان يدلك عليه ويمتلك به ويصف لك دقائقه، ولكنني مع ذلك لم أستطع أن أثبت لقوته ولا لرقته ولا لسحره، فانتهيت إلى مثل ما انتهيت أنت إليه من العجز والاستسلام.

وكأن شهريار يقول لشهرزاد: نعم! لقد قهر هذا النعيم قوتك الثائرة ونفسك الجامحة، كما قهر قوتي المتهالكة ونفسي المستسلمة، ولقد سوى بيننا في هذا الضعف الحلو وهذه الراحة الممتعة أو هذا المتاع المريح: لقد أنزلك إلى حيث أنا، أو رفعتني إلى حيث أنت، فأنا أراك الآن رأي العين، وأنا أعرفك الآن حق المعرفة، وأنا لا أدري بأي الأمرين أنا أسعد حظاً: أبهذا النعيم الذي يغمرك ويغمرنني، أم بهذه المعرفة التي جلت لي نفسك الغامضة وكشفت لي سر المكنون.

وكانت شهرزاد ترسل إلى الملك من عينيها وشفتيها ابتسامات ساحرة لم تخل من سخرية، ولكنها كانت سخرية واضحة يملؤها الحب والحنان، وليس لها حظ من قسوة أو مرارة، وكانت هذه السخرية تلقي في روع الملك أن استمتع بهذا النعيم الذي يغمرك ويغمرنني، واستمتع بهذا النعيم الذي تجده من جلاء نفسي الغامضة وانكشاف سري المكنون، وخذ من هذين النعيمين أكثر ما تستطيع أن تأخذ؛ فإنك لا تدري متى ينحسران عنك، كما أنك لا تدري متى يسرا لك ولا كيف يسرا لك. والشيء الذي ليس فيه شك، هو أنك ستعود ملكاً تدبر أمور الناس وتصرفها كما تريد، وأنت ستعود رعية تدبر أمور شهرزاد وتصرفها كما تحب، ولكن أرجو ألا يشق عليك تدبير الملك، وألا يثقل عليك غموض شهرزاد.

وبعد وقت لا أدري أطال أم قصر أحس الملك لسانه ينطلق وصوته يبلغ أذنيه، وإذا هو يقول: «أين نحن؟ وماذا نرى؟ وماذا نسمع؟ ألا تنبئني آخر الأمر من أنت؟ وماذا تريد؟!»

قالت شهرزاد متضاحكة: «ماذا؟! ألم تقل عيناك منذ حين إنك قد عرفتني حق معرفتي، وإنك تنعم بهذه المعرفة؟! فما سؤالك عما تعرف؟ أين نحن؟ لقد سمعنا أننا في جزيرة النعيم. ماذا نرى؟ إنما نرى أشجاراً وأزهاراً ورياضاً وأنهاراً، بذلك تسميها اللغة؛ لأنها تشبه من قريب أو بعيد ما تعودنا أن نرى في مملكتك تلك التي تركناها أمس، والتي لو أردنا أن نرجع إليها دون أن يعيننا قصص شهرزاد لما بلغناها قبل أن ينتهي ما قدر